التَّضام وأثـــــرهُ فـــــي القـــــرآن
من خـــــلال سورتـــــي الرّحمـــــن والواقعـــــة

أ. نسرين عبد الحميد رمضان السلوقي ـ كلية التربية الزاوية ـ جامعة الزاوية

المقدِّمة:

يُعدُّ التَّضـــام ضـــمن الظَّواهر الخطابيّة ذات القيمة البلاغيَّة، وقد عدَّها العلماء القدماء ضـمن باب البديع، فمِنهم من وقف عند إحصـائها، ومِنهم من أشـار إلى دورها في تحســين الكلام، ووظيفتها الجمع بين شــيئين، أو أشــياء في خِطاب معين، وعليه يمكننا إدراك الفرق بين الرأيينِ، من خلال معرفة أثر هذه الظاهرة في صـنع الاتسـاق داخل النّص القرآني.

ويعمل نحو النّص للكشـف عن ظاهرة النظام الواقعة بين الحمل والفقرات في النصـــوص القرآنيـة، من خلال توظيفهـا للكثير من العلاقـات التي تربط بين المفـاهيم بمحاولة توسيع نطاقها داخل النَّص.

وجاء التَّضـام من بين الظَّواهر اللُّغوية التي تندرج ضـمن الظَّواهر المسـؤولة عن إحداث اتسـاق على مسـتوى اللفظ النَّصـي، والتي يدور حولها محور الدِّراسـة في هذا البحث بعنوان: "التّضام وأثره في القرآن من خلال سورتي الرَّحمن والواقعة".

ملخص البحث:

اعتمدت في هذه المقـارنة على نظرية النّحو الوظيفي، حيث يقوم البحث على تتبع الصِّـــلات القائمة بين النصّ القرآني في جانبيه اللّفظي، والمعنوي، وما يؤدِّيه من أغراض، أي مـا يربط نظـام اللُّغـة في تراكيبهـا، وما تؤديه من معاني وأغراض تتعلق بمقصد النّص، وفهم المتلقي.

وفهم المتلقي يتـأثَّر بطبيعـة ســبك النَّص، وطريقـة الكلام وتردُّدِه يراعى لـه الحالات العامة، فبالتكرار ليشـذ ذهنه ويتذكر، وبالتضـاد يبني فهمه ويثبت، وبالتَّضـام يروّد ويقرر هذا الجانب من النظام التّركيبي للُّغة يُدْعَى في الدِّراسـات النصـيّة بالرَّبط المعجمي يعمـل على تحقيق ذلـك الاتســاق في النّص القرآني في ســورتي الرّحمن والواقعة.

مفهوم التَّضـــام: المفهوم اللُّغوي: ورد في "القاموس المحيط" في باب الميم فصـــل الضاد، الضَّمُ: قبض الشيء إلى الشيء.

ضَمَّهُ فانضم إليه، تضام، وضامَّة، وضطم الشّيء: جمعه إلى نفسه، وكغراب ما ضَمَّ به شيء إلى شيء. والإضْمَامَه بالكسر: الجماعة، وكصبور: كلُّ وادٍ يُسْلَكُ بين أكمتين طويلتين. والضَّـمْضَـام: الَّذي يحتوي على كل شـيء، والضَّـمةُّ: الحلبة في الرِّهَان وفرسُ السِّـباق. والأضـاميم: جماعات الخيل، وضـطم عليه: اشـتمل[1] تُجمع كل هذه المعاني في عبارة واحدة ترتبط بالجمع، والاشتمال والضُّم، والاحتواء، والوصل.

المفهوم الاصـطلاحي: التَّضـام وسـيلة من وسـائل تيسـير طول الكلام، لذا فإنَّ الَّذي يصـغى للكلام – أيًّا كان – يعجب أن يراهُ ممتدًا إلى غير حدود، فقد ينقطع المتكلِّم عن كلامه بعد برهة وجيزة، أو بعد فترة طويلة، غير أنّنَا لو حلَّلنا هذا الكلام، لوجدناه – مهما طال – يتكوَّن من أبنية صغيرة الحجم، قد تكون جُملًا مفيدة عند بعض العلماء أو مكونات مباشرة عند بعضهم، أو تكون أنماطًا عند بعض آخر وكل بناء من هذه الأبنية جميعًا لا يكاد يستغرق وقتًا يُذكر في نطقه، جعل من ذلك الكلام يسيرًا في الفهم[2].

إنَّ الّذي يَسَّرَ طول الكلام، وامتداده هو التَّضام، وهو أن تقبل لفظة تركيبًا، أن تَسـبق أو تُثلى بكلمة من قسـم آخر، ولا تقبل أن تسـبق، أو تثلى من قسـم ثالث، وقد استخدم ابن مالك النَّحوي هذه الظاهرة حين قال:

بـالـجـر والـتّـنـويـن والـنـداء وأل ... ومسـنـد للاسـم تمييز حصـل

سـواهمـا الحرف كهـل وفي ولم ... فعـل مضـارع يلى لم كيشـم[3]

فالأسـماء تقبل أن تتضـام "ياء النداء" معها، أمَّا الأفعال المضـارعة فتتميز بقبولها التّضـام مع "لم" الَّتي تأتي سـابقة عليها، كل ذلك أصـوات يمكن سـماعها وملاحظاتها، ثُمَّ استخدامها في تمييز والتحام، وهي وسائل شكليّة.

ولقد ذهب علماء اللُّغة المحدَّثون مذهب ابن مالك النّحوي في هذه القضية فهذا دي سوسير يرى: "أن العلوم الطَّبيعية تبدأ تصنيفها بوصف كل وحدة من الوحدات، نجد أن وصف عناصر اللُّغة لا يمكن أن يتم إلاَّ بالنظر إلى علاقة كل عنصر بما عداه من العناصـر الأخرى، نظرًا؛ لأن أحدًا من هذه العناصـر لا يملك أي قيمة ذاتيّة إلاَّ بتقابله مع العناصر الأخرى"[4].

ويرى هلمسيلف: أن ظهور أي عنصر لغوي يحكمه ظهور عنصر لغوي آخر، أي عنصر لغوي مثل الاسم، أو الحرف، أو الصائت، أو الصّامت لا يمكن تحديدهُ أو تعريفه إلاَّ في وجود العناصر الأخرى، فهذه العناصر ليست قابلة للتحليل اللُّغوي؛ لأنها مستقلة وإنَّما هي قابلة للتحليل من حيث هي عناصر ذات علاقات محددة مع عناصر أخرى داخل بنيّة معينّة في لغة معيّنة[5].

هذا ما توصل إليه علماء اللُّغة قديمًا، وحديثًا من أن التَّضام بين أقسام الكلام يكون محددًا أصلًا فبعض الأقسام تتضام مع بعضها، ولا تتضام مع غيرها وهكذا.

ينطلق علماء اللُّغة حديثًا من معطيات ثلاثة للتعريف بظاهرة التّضام، التي اقترحها روبرت ديبوجراند: وتقوم على استبدال المجالات الثّلاثة المعروفة تقليديًا في علم الإشارة وهي: النَّحو، والدّلالة، والبراغماتية، بثلاثية جديدة هي:

- وصليّة تتابعيّة.
- وصليّة المفاهيم.
- وصليّة مجموعة الأحداث والخطط، والأهداف[6].

وعليه يشتمل التّضام على "الإجراءات المستعملة في توفير التّرابط بين عناصر ظاهر النّص كبناء العبارات، والجمل، واستعمال الضمائر، وغيرها من الأشكال البديلة"[7].

واستخدام مثل هذه الظَّاهرة يهدف إلى الحفاظ على استقرار النّص السردي من خلال استمرارية الوقائع داخله بوصفه نظامًا من الحكي، وبالمفهوم التواصلي للنص تستند فكرة الاستمرارية تلك إلى الافتراض القائل بوجود "ارتباط بين مختلف وقائع النّص من جهة، وسياق استغلاله من جهة أخرى، أو بمصطلحات معرفية، ولكلّ واقعة قيمة بصفتها وسيلة في التّوصل إلى بعض الوقائع الأخرى على الأقل"[8]، والمثال التالي يوضح ذلك:

- مالي أرى طلبة الآداب الذُّكور لا يحضرُون الدَّرس النَّحْوِي؟

الطالباتُ يحضرْن.

فكلمة "الذكور، والبنات" ليسا مترادفين إلاَّ أن وُرُودهُمَا في النّص على هذه الشاكلة يسهم في بناء النصيّة. فالعلاقة التي تحكم كُلًا من الذكور والبنات علاقة تعارض، إضافة إلى علاقات أخرى واردة في المثال مثل: الكل بالجزء، أو الجزء بالكل، أو عناصر من نفس القسم العام، على أن القارئ يتجاوز صعوبة اكتشاف مثل

هذه العلاقات بخلق سياق تترابط فيه العناصر المعجميّة معتمدًا على حدسهِ اللُّغوي، وعلى معرفته بمعاني الكلمات وغير ذلك[9].

وعليه فالتّضـــام: "هو توارد زوج من الكلمات بالفعل؛ نظرًا لارتباطها بحكم هذه العلاقة، أو تلك"[10].

ومنه فالتَّضام هو المصاحبة المعجميّة، ويراد بها العلاقات القائمة بين الألفاظ في اللُّغة مثل (الولد - البنت) علاقة التضـــاد، وعلاقة التقابل، وعلاقة الجزء بالكل وعلاقة الجزء بالجزء، مما شاع في اللُّغة عامة، وفي علم الدّلالة خاصة.

والتضام بشكل عام يمكن فهمه من وجهين هُمَا:

أ ـــ الوجه الأوّل: هو الطُّرق الممكنة في رصـفّ جملة ما فتختلف طريقة منها على الأخرى تقديمًا، وتأخيرًا وفصلًا، ووصلًا، ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التّضام اصـطلاح "التَّوارد"، وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسـة الأسـاليب التركيبيّة البلاغيّة الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النّحوية والقرائن اللّفظيّة.

ب ـ الوجه الثَّاني: أن المقصود بالتَّضام أن يستلزم أحد العنصرين التَّحليليين النحويين عنصـرًا آخر فيصـطلح عليه هنا "التّلازم"، أو يتنافى معه فلا يلتقى به فيسـمى هذا "التَّنافي"، وعندما يسـتلزم أحد العنصـرين الآخر، فإنَّ هذا الآخر قد يدُّل عليه بمبنى وجودي على سبيل الذّكر، أو يدُّل عليه بمبنى عدمي على سبيل التقدير بسبب الإستثار، أو الحذف[11].

ويعرف تمام حسان كُلًّا من هذه الأقسام الثلاثة للتَّضام على النّحو التالي:

التلازم: هو أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين عنصرًا آخر، وأهم نماذجه الاختصاص، وتلازم الصفة والموصوف، والمعطوف، والمعطوف عليه.

التنافي: هو أن يتنافى أحد العنصرين مع الآخر فلا يلتقي به.

التوارد: هو الطرق الممكنة في رصـــد جملة ما فتختلف طريقة منها عن الأُخْرى تقديمًا، وتأخيرًا وفصلًا، وصْلًا[12].

والتَّضام نوع من أنواع الرّبط المعجمي، حيث يرتبط عنصر بعنصر آخر. من خلال الظُّهور المشترك المتكرِّر في سياقات متشابهة – مثل لفظ: الحرب الأعداء – الصراع – الجِنرال والمجتمع – الاقتصاد – الطبقة، ويُعدُّ هذا النوع أكثر أنواع الرّبط المعجمي صـــعوبة في التحليل حيث يعتمد على المعرفة المســبقة للقارئ بالألفاظ في سياقات متشابهة، والتوصل إلى فهمها في سياق النّص المترابط[13].

وهناك علاقات تضاميَّة أخرى تحكم هذا النظام، مثل:

العلاقات التّطابقيَّة: والتي تكون بين اســم يحمل علامة التأنيث، وآخر يحمل نفس العلامة، أو بين اسم معرفة وآخر معرفة، أو بين اسم مرفوع، ومرفوع آخر.

العلاقات الاشـتقاقية: والتي تكون بين الألفاظ مثل: قَرَأْتُ قراءة مُتأنيَّة، حيث تشـترك اللّفظتان: قرأت – قراءة في مادة اشتقاقية واحدة.

فهذه العلاقات تعمل في نظام متضام مرتب تحت مسمى العلاقات البنائية السنتاجمية.

والاتسـاق بواسـطة علاقة التّضـام يتمُّ عبر توارد زوج من الكلمات ترتبط بعلاقات معجميّة غير التّكرار كالطِّباق، والجزئية، والكليّة، والعموم، والخصـوص والتّرتيب، والمجاورة وغيرها من العلاقات الممكنة بين مفردات النّص ووحداته.

أثر التّضام في النّص القرآني:

النُّصوص عادة ما يتضمَّن علاقات خاصة بين كلماتها، وهي علاقات يصفها علماء اللُّغة بالمعنويّة، تكون بها أقل سـهولة في التَّحديد لتقاربها في الدَّلالة، وتلعب دورًا مهمًا في إحداث الاتسـاق من خلال الظهور المشـترك، وارتباطها بموضـوع معيّن، ممَّا يُكسب النّص تنوُّعًا في الموضـوعات، وكل موضـوع منها يبرز مخزون اللُّغة عبر تضـام مجموع الكلمات المرتبطة به، "والتي تمثّل أسـاسًـا مشـتركًا مع المخزون الإدراكي لدى المتلقي، ممَّا يُسهم في إدراك وحدة النصّ وتماسكه"[14].

وينظر إلى تلك العلاقات التي تجمع أطراف النّص، وترتبط بين عناصره على أنَّها علاقات دلاليّة[15]، ترتبط بينها برابط دلالي معيَّن[16]، تحت مُسـمَّى الحقل المُعجمي، أو الدَّلالي، ومثال ذلك علاقات: العموم، والخصـوص السـبب والمسـبِّب، المجمّل، والمفصّـل، وفي نظر محمد خطابي: "لا يكاد يخلو منها نص يحقق شـرطي الإخبارية، والشّـفافيّة مسـتهدفًا تحقيق درجة معينّة من التواصـل سـالكًا في ذلك بناء اللاّحق على السّابق، بل لا يخلو منها نص يعتمد الرّبط اللُّغوي بين أجزائه"[17].

وفي هذا المجال يمكنني أن اسـتعين برأي "أحمد المتوكل" القائل: "بأنَّ كل المحاولات في النحو الوظيفي تدل على واقعة وتنقسم الوقائع إلى أربعة أصناف":

1- أعمال مثل: انطلق زيدٌ.
2- أحداث مثل: دوي الرّعد.
3- أوضاع مثل: زيدٌ واقفٌ.
4- حالات مثل: مِرِضَ زيدٌ[18].

ويضع أحمد المتوكل قيودًا لعطف المحمولات تخضع لها، وهي:

1- **قيد تناظر الوقائع:** يجب أن يكون المحمول المعطوف عليه والمحمول المعطوف دالًا على الصِّنف نفسه من الوقائع.
2- **قيد وحدة الحقل الدلالي:** يجب أن يكون المحمول المعطوف عليه، والمحمول المعطوف دالين على واقعتين منتميتين إلى نفس الحقل الدَّلالي شريطة ألَّا تكونان متناقضين أو مترادفين.
3- **قيد تناظر الوظائف التّداولية:** يجب أن يكون المحمول المعطوف عليه والمحمول المعطوف حاملين لنفس الوظيفة التّداولية[19].

وفي النص القرآني نجد ما يُسمَّى بعطف العناصر، ولكن قد تكون المسافة المعنوية بينهما بعيدة نسبيًّا عند سورتي الرَّحمن والواقعة.

وهي طريقة تستبعد المتوقع، وتحلُّ محله غير المتوقع، ممَّا يفاجئ بما لا ينتظرهُ حرفيًّا، فينشأ بذلك الغموض، ويقترب التعبير من اللُّغز ممَّا يتطلَّب من القارئ بذل جهدٍ إضافيٍّ؛ لفهم مقاصد النصِّ، من خلال ربط علاقات تلك العناصر ببعضها؛ لذا أَعْتَمِدُ الأمثلة التّالية في التّحليل وهي أمثلة محدودة، إذا ما قُورنت بمجموع العلاقات الموجودة في السورتين:

أولًا: سورة الرحمن: المجموعة (أ):

قال تعالى: (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ القُرْآنَ (2) خَلَقَ الإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ البَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ (7))[20].

وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (10))[21].

خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (15))[22].

أول ما نلاحظه على هذه الآيات أن العناصر فيها ذات ظهور مشترك، ومرتبطة برابط الاسم الّذي يجمعها وهو لفظ الجلالة **(الرَّحْمَنُ)** مبتدءًا السُّورة بجملة اسميّة، تستشرف إذن المتلقي لما سيرد من خبر ثابت بدلالات الجملة الاسمية المناسب لهذا الوصف، فجاء الخبر في شكل مجموعة من الجمل المتتالية، تحتوى على العناصر: (عَلَّم – خلَق – عَلَّمَ – رَفَعَ - وَضَعَ)، وهي أفعال صيغتها (فَعَلَ ، فعَّلَ)، وزمنها الماضي مسندة إلى لفظ الجلالة فالعناصر الأولى (عَلَّمَ – خلَقَّ – عَلَّمَ) غير متعاطفة لمجيئها على نمط التّعديد في مقام الامتنان، ويدخل في هذا المعنى لفظ (بِحُسْبَانٍ)، ثُمَّ تليها أربعة أخرى (يسجدان – رفَعَهَا – وَضَعَ – وضَعَهَا) متعاطفة بحرف العطف، وجِيء بالمسند فيها فعلًا مؤخرًا عن المسند إليه لأجل التّخصيص.

فعدم العطف بين العناصر الأولى فيه حُجج دامغة للمنكرين، الذَّين لا ينازعون الله تعالى في هذه الصِّفات، لكنَّهم لمَّا أعرضوا عن موجبها، وهو توحيده "سبق لهم الخبر بها على أسلوب التّعديد بدون عطف، كالذَّي يعدُّ للمخاطب كثرة أخطائه، وغفلته، وهذا تبكيت"[23].

بمعنى التباس، وهذا الأسلوب يمكن إدراجه في قائمة الوقائع، التي يتقدَّمها العمل، وفي كل آية يدُّل على نفس الصِّنف، لزيادة تُقوَي الحكم، ويبدأ العطف بين العناصر الأربعة الثّانية لخروج الأسلوب من التِّعداد إلى إيفاد الدَّلالة؛ لما في سجود: النّجم – الشّجر ورفع السَّمَاء، ووضع الأرض من عبِرة بمعرفة عظيم قدرة الله تعالى على الخلق، فهي للاتعاظ وليست للتوبيخ.

وبما أنَّ هذه السُّورة بُنيت على نظام المزدوجات، فإنّه رُوعي فيها تقديم الأهم على المهم من الألفاظ الدَّالة على العمل بمصطلح النَّحو الوظيفي الموافق لقيام الحجة وبيان السّبيل، بما تقتضيه درجة الإنكار، وطريقة الإقناع، وهكذا الظهور المشترك للعناصر المتوافقة في العمل "دالة على تصرفات الله؛ ليعلمهم أنَّ الاسم الذي استنكروه هو اسم الله وأنَّ المسمى واحد"[24].

وهذا هو الحقل الذي يجمع بين العناصر (عَلَّمَ – خَلَقَ – رَفَعَ - وَضَعَ) لاشتراكها في موضوع (الخلق) الذي يعود عن لفظ الجلالة في بداية السورة، فيمثلّ بذلك بؤرة تدور حولها كل معاني الجمل الامتنانية بعدها، ممَّا يتبيَّن اجتماع المعجم اللُّغوي للآيات؛ لأداء مهمة الرّبط التي تقضى إلى الاتساق.

المجموعة (ب): قال تعالى: في سورة الرحمن

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ)[25].

(فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ)[26].

(يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ)[27].

(هَـذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44))[28].

الأفعال الواردة في الآيات الثّلاث الأولى أفعال مضارعة مبنية للمجهول، تدل على الأمور الغيبية، ووقوعها في الزمن المستقبل بدلالة الآية السّابقة قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ)[29].

وهو تحذير للمكذبين بما سيقع يوم القيامة من أنواع العذاب، فإرسال الشّواظ، والأخذ بالنّواصي، والإقدام من طرف الملائكة العذاب الموكلون بذلك، هي الصورة

التي أراد القرآن الكريم نقل أذهان الناس إليها، والتّركيز على هذا الفعل بلفظ المضارع الدّال على العمل، فيه وعيد شديد بأن الجزاء من جنس العمل، وهو مستمر ما استمر تكذيب النّاس بفضائل الله عليهم.

وفي هذه الأفعال بيان على عدم الإفلات من العقاب يوم القيامة، وهو استئناف بياني لتوضيح أن ذلك اليوم هو يوم حساب، وعقاب يتوقف فيه عمل الإنسان لذلك جاء الخطاب بعدم سؤالهم عن ذنوبهم فقط سيماهم، وعلاماتهم التي في أجسادهم هي الدَّالة على أعمالهم.

تم يستمر التهويل، والتسفيه لهم، وبيان حالهم بالمضارع الدَّال على التردد، والإكثار منه، والسرد وهنا ليس كالتردد الدُّنيا:

فالتردد في الدُّنيا: هو عدم قبولهم الحق، والشك فيه.

التردد في الآخرة: هو مشبهم بين مكان النار وبين الحميم.

ويتَّضح أنَّ هذه الأفعال جِيء بها للتحذير بعد تعداد نعم الله وفضائله في بداية السُّورة، فهي الآن في مقام بيان أهوال يوم القيامة بذكر النار، وشدائدها وهو الحقل الذي يجمع بين عناصر هذه الآيات لإتمام المعنى العام للسورة، الذي يقضي بمعرفة حق الرّحمن.

ومن خلال (أ) (ب) استنتج أن فضائل الله تعالى المُتمثلة في أفعال [الخلق – الرفع – الوضع – المرج...] لا ينبغي أن تقابل بأفعال الخلق (التكذيب)؛ لذلك خاطبهم بقوله: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، ثُمَّ الذين هذا فعلهم في الدُّنيا يقابلون هم أيضًا يوم القيامة بأفعال العقاب (يرسل – يؤخذ) ولذلك جاءت مبنية للمجهول تحقيرًا لهم، ولذلك فالآيات في الموضوعين تتناسق معنويًا من أول السورة إلى الآية (44) (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)، لارتباطهم بموضوع الرّد على المنكرين.

ويتكوَّن كل تضام فرعي من مجموع الألفاظ المندرجة تحته، حيث يصبح الوصف مجالًا نشط لظهور حقل جديد، على نحو ما نجدهُ في وصف الجنان عند قوله تعالى:

- المجموعة (ج) في سورة الرحمن:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[30].

(فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)[31].

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ)[32].

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ)[33].

(فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)[34].

- وقوله تعالى: في سورة الواقعة:

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ).

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)[35].

(فِي سِـــدْرٍ مَّخْضُـــودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُـــودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (31))[36].

فتتشكَّل قطعة هذا الوصف من مجموعة من الأسماء المتضامة التَّي تصف هذا المكان وهي: جنتان – عينان – فرش – قاصـــرات – الطّرف – فاكهة – نخل ورمان – ولدان مخلدون – بأكواب – أباريق – وكأس – سدر، وظل، ماء... تشير هذه الأسماء إلى علو المكان، وسعتِهِ، وحسنه، وما بِهِ من وسائل الرَّاحة، وأنواع الأكل، والفاكهة، وما يفتقده العرب كالظِّل والماء، وما يشتهيه الإنسان من شهوة، حيث يمتد هذا الوصف عبر السورتين بغرض التشويق[37].

ثُمَّ يجعل القرآن شرطًا لدخول هذا المكان، وهو أنَّ يكون من أصحاب اليمين، أو السابقين على تفاضلهما في الجزاء.

وفضـلًا عن هذه العلاقة المكانية التي تربط المكان وما بداخله بأصـحابه يقدِّم القرآن الكريم علاقة أخرى بين الموصوف (الجنة)، وأصحابها، وهي العلاقة الزَّمانية؛ حيث علَّق ذلك بحادث يوم القيامة، وهي علاقة بين جملتين متتابعتين زمنيًّا[38]، وهو زمن يبدأ بانطلاق علاماته الكبرى ومنها رَجُّ الأرض ولبس الجبال، فتصـــبح القيامة رأسًا لتضام فرعي يسهم الوصف في بنائه. وهذا ما نجدهُ في قوله تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّـــمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)[39]، وقوله تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًا (4) وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَساً (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثّاً (6) وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً (7))[40].

فيتضـام في ذلك الوصـف مجموعة من الألفاظ: (انشـقت السَّماء – الواقعة – خافضـة – رافعة – رجت رجًّا – لبسـت بسًـا – هباءًا – منبثًّا – أزوجًا - ثلاثة) تلك المحمولات التي تصف القيامة، وأهوالها تدُّل على الصِّنف نفسه من الوقائع وما يحدث في هذا الوقت من حركة الأرض، والجبال، وفزع الناس، وتفرُّقهم.

وفي هذا الوصـــف تظهر المحمولات مرتبطة برابط العطف (الواو – الفاء)، حيث يدل كل محمول على حادثة خاصـة متسـلسـلة تسـلسـلًا مؤتلفًا ومنطقيا يجعل من النص المنجز نصًـــا قياديًّا[41]، فالواو لمطلق الجمع أمَّا الفاء جاءت لترتيب بين جمل النص[42].

وفي هذا السِّياق المكاني والزماني، تقدِّم السُّورتان وصفًا لجميع البشر الذين يشتركون لصنع الأحداث، فالسِّياق يشمل كل الظُّروف الماديّة، والمكانيّة، والزمانيّة وتصنيفهم إلى ثلاثة أصناف[43]، (أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة – السابقون) من خلال تقديم أوصافهم التَّي عرفوا بها في الدُّنيا، وهي التَّي تقود كل صنف إلى جزائِهِ، وهؤلاء بالأصناف هم: في قوله تعالى:

السابقون: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (14))[44]، وقال تعالى: (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89))[45]، حيث جاء ذكر جزائهم خاصًا.

أصحاب اليمين (الميمنة): حيث قدمت الآيات وصفًا لكل من سيدخل الجنة وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة[46]، فقال تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[47]، وقال فيهم في سورة الواقعة: (ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ)[48].

أصحاب الشمال (المشأمة): قال تعالى فيهم: (يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ)[49].

أصحاب الشمال ذكر منازل أهل النار؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم[50]، في قوله تعالى: (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ)[51].

وقوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)[52]، وقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ)[53].

وهذه الفئة من النّاس والتّي تكون في جهة الشمال، توضح الآيات عذابهم من بين ذكر صفاتهم ليكتمل المشهد عند المتلقين بأنَّ هذه الصِّفات تؤدي إلى هذا العذاب، يقول تعالى في سورة الرحمن: (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ)[54]، وقال: (يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ)[55].

وقال في سورة الواقعة: (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)[56].

إذن من خلال ما تقدَّم من وصف الجنان والعذاب، يتبين "أن العلاقة وطيدة بين المكان والوصف، بوصف الأخير آلية تشكل الأول وتكسبه الهوية"[57].

كما يعمل على خلق بعض العلاقات الدَّالة داخل النسيج النَّصي بما يخدم الموضوع العام في شكل متسق معجميًّا، ولكن من الملاحظ عن الوصفين الواردين

(العذاب – الإحسان)، إنَّه جمع العذاب جملة، وفصل آيات الثَّواب ترجيحًا لجانب الرحمة على جانب العذاب وتطييبًا للقلب، وتهييجًا للسَّامع فإن إعادة ذكر المحبوب محبوب، وتطويل الكلام في اللّذات مستحسن[58].

ويستمر التّنوع في الحقول داخل السُّورتين بما يخدم التَّضام الرئيسي كما نرى في آيات الامتنان، التي تحوي تعداد بدائع الله في الكون وسرِّ عظمته، بما ينافي الكفر به، وعبادة غيرهُ معه يقول تعالى:

- في سورة الرحمن: (عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ)[59].
- (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ)[60].
- (وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ)[61].
- (خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)[62].
- (مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ)[63].

وقال في سورة الواقعة:

- (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ)[64].
- (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[65].

وهذا شكل آخر من العلاقات المتداخلة بين مجموع الألفاظ المرتبطة في تضام فرعي تمثلّ موضوع عجائب خلق الله تعالى، وبدائع صنعه في الكون والمتمثلة في (القرآن – السماء – الميزان – الأرض – الجان – البحرين برزخ - الموت – الإنشاء...)، وهذا أسلوب تواصلي يرمي إلى إثبات قضية صفة الرّحمن وتوحيده بالعبادة، وفق نمط حجاجي يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان، والسعي لتغيير وجهة نظر من أنكر اسم الرَّحمن فتكون العناصر (القضية – البرهان) المرتبطة بهذا النمط متضامة مع وحدة الموضوع التّي تعمل على إثباته.

والقضية – كما أشرت إليها – هي: إثبات صفة الرَّحمن وتوحيده بالعبادة والدَّلائل في ذلك تتمثل في معجزات الله تعالى في الكون، وهي حجج غير قابلة للإنكار تترك المتلقي في موقف المستنتج اعتمادًا على قوة الاستقراء كالمنجز النَّصي والقوة الخارجية.

حيث قدَّم في هذه الآيات نعمة الدِّين المُتمثلة في معجزة القرآن ثُمَّ تلاهُ بخلق الإنسان المخاطب به، ثُمَّ عاد فأتبعه إياهُ "ليعلم أنَّه إنَّما خلقه للدين، وليحيط علمًا بوحيه، وكتبه وقدّم ما خلق الإنسان من أجله عليه، ثُمَّ ذكر ما تميّز به عن سائر

الحيوان من الإنسان"[66]، ثُمَّ تواصل الآيات ذكر أصناف النِّعم ومختلف الآلاء، من خلق الشمس، والقمر والنجم، والشجر، والبحر... الخ، وكلها تمثِّل مظاهر الطَّبيعة (بين الحي، والمتحرك) يدركها المتلقي بحسه الذَّاتي، عبر وصف موضوعي خارجي، يسعى للكشف عن صفات الموصوف كما هي في الواقع.

على هذا النَّحو يشكل كل من التَّضام الرئيسي، والتَّضام الفرعي معجم السُّورتين، في صورة شبكة متداخلة من العلاقات تُسهم في بناء موضوعهما فيصبح التَّضام شكلًا من أشكال الرَّبط المعجمي داخل النّص القرآني، فضلًا عن أثره في إضفاء سمة التنوّع باختلاف الموضوع والألفاظ المتضامة معه من سورة إلى أخرى، كما أنَّهُ يُعدُّ إحدى الوسائل المهمة التي تُسهم في فتح قناة تواصل بين النّص، والقارئ – على اختلاف توجّهات المتلقين – عن طريق إدخال التَّضام الفرعي بما يتناسب مع التَّضام الرئيسي وارتباطه بموضوع السُّورة.

وظائف التّضام وأغراضه البلاغية:

التَّضام هو ظاهرة بلاغيّة أدرجها العلماء ضمن باب البديع، وهو توارد لفظين معجميًّا لعلاقة بينهما تحوي جملة من الوظائف، والأغراض وبعد الانتهاء من بيان أثره في تحقيق الاتساق، ألخص وظائفه فيما يلي:

ـــ لتّضام وسيلة من الوسائل الأكثر براعة في تجميع عدد من أفكار، وتوسيع المفاهيم داخل نطاق النّص، باعتباره وسيلة قادرة على الرّبط بين الألفاظ في حقول دلاليّة مختلفة.

ـــ يمتاز التّضام بما يسمّى بظاهرة (التَّوارد)، وهي ارتباط ألفاظ مع أخرى معينة دون غيرها، والأكثر من هذا يجمع بين العناصر المتقابلة عبر ربط ألفاظه نحويًّا وفق ظاهرة (التّلازم).

ـ يعتمد التّضام على الجمل القصيرة، والخطابات المباشرة في رصف أجزاء النّص وتعليق بعضه ببعض عبر علاقات سببية، وأخرى تعارضية أو شرطية، أو متشابهة.

ـ للتضام وظيفة مرجعيّة داخل النّص؛ وذلك بتعليق عناصره بلفظ وارد في أوّله، أو متكرر من حين لآخر.

ـــ يعمل التّضام على اتساق النُّصوص وفق ترتيب عناصر النّص وفقراتِهِ بطريقة منهجية تكسب النّص تسلسلًا منطقيا يسهل فهم معانيه.

ـــ يعمل التّضام على وظيفة الاستمرارية لمعاني النص، ممَّا يُسهم في اتساقه دون تفصيل مُمل.

ـ يعتمد التّضام على أسماء الذوات، وأفعال الجوارح، وأفعال الحالة، والجمل الاسمية، والنعوت في توصيف مشاهد النّص التّي تتراوح بين المفتوح والمغلق والحسن والسَّيء، أو الثابت والمتحرك، حيث تمنح الشّخصيات فيها الهوية من أجل التّفاعل، مما يكسب النّص حضورًا، وعمقًا دلاليًّا، فضلًا عن كونه يقدِّم حالة من الإحساس البصري لدى القارئ كي يتمكن من تصوير تلك الموصوفات، فيحدث نوعًا من الترابط، أو الاتصال الذّهني بما تثيرهُ في نفسه من مشاعر.

الخاتمة:

من خلال ما تقدَّم عرضه من بيان أثر التَّضام في تحقيق الاتساق النَّصي داخل نص سورتي الرّحمن والواقعة، وبعد إتمام عملية الإحصاء، وبيان نسبة توزيع كل نوع استنتج ما يلي:

ـــ لا تقتصر وظائف التضام على الربط داخل النّص الواحد فقط، بل تتعداه إلى الرَّبط بين المواضيع المتشكلة لنص السُّورتين، كما يشكِّل كل موضوع حلقة من حلقات النّص.

ـــ وسيلة التَّضام لا ترتبط فقط بقدرة اللُّغة على التنويع في استخدام هذه الوسائل بل تشير أيضًا إلى دورها في بناء النَّمط الحِجَاجِي الذّي تمتاز به السُّورتان، وذلك من خلال تواصل الآيات في ذكر نعم الله تعالى، وآلائه في الكون، والاعتماد على الوصف المتتالي لمظاهر الجزاء الأخروي، ممَّا يُسهم في اتساق البناء العام للنص وسهولة تعلقه بذهن القارئ، من خلال ارتباط عناصره بنفس الموضوع.

ـــ ظاهرة التَّضام هي ظاهرة لُغوية عرفتها اللُّغة العربيّة في أقدم نصوصها الشّعرية، والسّردية، وقد تناثرت أقوال في الحديث عنها، وإشارات إليها في كتب القدماء والمحدثين.

ـــ إنَّ اعتماد البُنيّة النصيَّة لسورتي الرَّحمن والواقعة على التَّضام في سياقات مختلفة أسهم في اتساق النَّص، وتكامل مقاطعه الوصفية، والحوارية والحجاجية، وذلك بوصفه طريقًا مفتوحًا بالنسبة إلى القارئ يحاور نَصَّهُ ويؤوله، انطلاقًا من معرفته الخلفيّة ورؤيته للعالم.

ـــ يحاول القرآن الكريم من خلال التّضام التّأثير في نفسيّة المتلقين، من خلال تناوله الجانب المادي تعدادًا وتوصيفًا، وقد كشفت عن ذلك الألفاظ التي اتسمت بنسبة عالية من الشيوع في الموضوع المادي الدّنيوي (بدائع خلق الله من سماوات، وأرض، وشمس، وقمر...) والأخروي (جزاء الجنة والنار)، عكست مدى نجاح الوصف في

تحقيق الوظيفة الإيهامية التّي تجعل من الموصـــوف مطابق للواقع، كما يبرز في هذا الوصف أسماء الأصناف وأفعال الجوارح، وأفعال الحالة، والجمل الاسمية والنعوت أي (وصف سلوك الناس أفعالهم وحركاتهم في مستقرهم الأخير الجنة، أو النار).

ــ اعتماد السورتين أسلوب المقارنة – في بعض الأحيان – القائم على الوصف الدّقيق لمشـــاهد الجنة والنار (وهما مشـــهدان متقابلان) يســـاعد على تنوَّع الموضـــوعات وتعدُّدها، وارتباطها في صورة منسقة، تعمل على التأثير في المتلقي.

الهوامـــش

1- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، باب الميم، فصل الضاد، ص: 1143.
2- يُنظر، الأنماط الشكلية لكلام العرب نظرية وتطبيق، جلال شمس الدين، 113/1.
3- شرح ابن عقيل، ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محي الدين عبد الحميد، 06/1.
4- يُنظر، الأنماط الشكلية لكلام العرب، جلال شمس الدين، 114/1.
5- يُنظر، المصدر السابق، 115/1.
6- يُنظر، مدخل إلى علم لغة النّص، روبرت ريبوجراند، ص: 11.
7- المصدر السابق، ص: 11.
8- المصدر نفسه، ص: 71.
9- يُنظر، لسانيات النص، محمد خطابي، ص: 25.
10- المصدر السابق، ص: 25.
11- يُنظر، اللُّغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: 216-217.
12- المصدر السابق، ص: 222.
13- يُنظر، علم لغة النَّص النظرية والتطبيق، عزه شبل، ص: 109.
14- المصدر السابق، ص: 157.
15- يُنظر، لسانيات النّص، محمد خطابي، ص: 268.
16- الظاهرة الدلاليّة عند علماء العربيّة، صلاح الدين زوال، ص: 190.
17- لسانيات النص، محمد خطابي، ص: 269.
18- دراسات في نحو اللُّغة العربيّة الوظيفي، أحمد المتوكل، ص: 198.
19- المصدر السابق، ص: 201.
20- سورة الرحمن، الآية: (1-2-3-4-5-6-7).
21- سورة الرحمن، الآية: 10.
22- سورة الرحمن، الآية: 14-15.
23- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 232/7.
24- المصدر السابق، ص: 233.

25- سورة الرحمن، الآية: 35.
26- سورة الرحمن، الآية: 39.
27- سورة الرحمن، الآية: 41.
28- سورة الرحمن، الآية: 43-44.
29- سورة الرحمن، الآية: 31.
30- سورة الرحمن، الآية: 46.
31- سورة الرحمن، الآية: 50.
32- سورة الرحمن، الآية: 54.
33- سورة الرحمن، الآية: 56.
34- سورة الرحمن، الآية: 68.
35- سورة الواقعة، الآية: 17-18.
36- سورة الواقعة، الآية: 28-29-30-31.
37- يُنظر، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 9/406-407.
38- لسانيات النص، محمد خطابي، ص: 23-24.
39- سورة الرحمن، الآية: 37.
40- سورة الواقعة، الآية: 1-2-3-4-5-6-7.
41- نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقية، عثمان أبو زنيد، ص: 136.
42- يُنظر، معاني النحو، لفاضل السامرائي، 1/244.
43- يُنظر، علم الدلالة أحمد مختار، ص: 71، ويُنظر، علم اللُّغة مقدمّة للقارئ العربي، محمود السعران، ص: 252.
44- سورة الواقعة، الآية: 10-11-12-13-14.
45- سورة الواقعة، الآية: 88-89.
46- يُنظر، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 9/421.
47- سورة الرحمن، الآية: 46.
48- سورة الواقعة، الآية: 39-40.
49- سورة الرحمن، الآية: 41.
50- يُنظر، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 9/432.
51- سورة الواقعة، الآية: 41-42.
52- سورة الواقعة، الآية: 45-46-47.
53- سورة الواقعة، الآية: 51.
54- سورة الرحمن، الآية: 35.
55- سورة الرحمن، الآية: 41-42-43-44.
56- سورة الواقعة، الآية: 51-52.
57- التقابل المكاني الأخروي في سورة الواقعة دراسة بلاغية وصفية، أسماء مسعود، ص: 18.
58- يُنظر، اللُّباب في علوم الكتاب، عادل أحمد عبد الموجود، 18/345.
59- سورة الرحمن، الآية: 2-3.
60- سورة الرحمن، الآية: 7.
61- سورة الرحمن، الآية: 10.
62- سورة الرحمن، الآية: 14-15.
63- سورة الرحمن، الآية: 19-20.

64- سورة الرحمن، الآية: 57.
65- سورة الرحمن، الآية: 60-61.
66- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي أبو البركات، 588/2.